القفجـــاق

للأســـتاذ أحمد رمزى بك

« له براثن تحت إبطيه وصدر وجنبات عليها أطواق وأنراس ملونة ، ليس لأقشة الترك والتر أن تحاكيها ... ... » .

جحيم دانى

القفجاق أو القبجاق أو الخفشاق أو القبجق كلمات وردت فى الكتب العربية القديمة ويعادلها بالأفرنجية Kaptchabr Riftchabr

هل القفجاق اسم مكان أطلق على السكان ، أم هم قبيل من الناس أطلق اسمهم على الأراضى التى سكنوها فعرف المكان باسمهم ؟

هذا بحث يقصر عنه الجدل .

فمن قائل إن القفجاق فى لغة الأتراك القدماء هو الصعيد المتسع أو الفياف من الأرض الواسعة المنبسطة أى Steppes حيث يكثر المرعى وينبت الزرع ، ثم يأتى الجدب فتصبح الأرض كالصحراء ولذلك كثر ورود اسم صحارى القفجاق فى كتب العرب

وعليه فسكان هذه البقاع هم أهل السهول والبوادى مثلهم كأهل البادية من العرب الذين وصفهم ابن خلدون فى مقدمته بقوله « لما اختصوا به من نكد العيش وشظف الأحوال وسوء المواطن » وعليه فالقفجاق قوم يعشقون الحرية ولا يخضعون لنظام ، اختلفوا عن غيرهم من سلالات الترك الذين هم أهل جماعة وسلطان ونظام ، الذين تجمع بينهم وحدة التعاون والخضوع للرآسة وما يمليه قانون الجماعة ، فإذا تركنا أهل المشرق فى آسيا جانباً يقول علماء الأجناس إن أهل قنلندة وبعض سكان اسكندنافيا والبشكاريين وفريق من سكان القوقاز المستوطنين هم أهل حضارة وباقى سكان هذه المناطق من أهل هجرة العناصر التركية الأولى فى فجر التاريخ : قفجاق .

ويقول الباحثون إن العناصر التركية البدوية اتجهت فى هجراتها إلى ناحيتين : صحراء جوبى فى الصين وصحراء القفجاق فى الروسيا ، وأقام ملوك الصين سداً لحماية بلادهم . أما فى أوروبا فقد عبر القفجاق نهر الفولجا « أتل » ودخلوا السهول واتجهوا إلى الغرب فوصلوا إلى الدانوب جنوباً وإلى المجر وسهول بولونيا فأينما اتجهت جماعاتهم ووصلت سنابك خيلهم فهى امتداد للقفجاق

ويطلق اسم القفجاق على القبائل التى هاجرت ودخلت بلاد الرمال بألوانها المختلفة . الرمال السوداء والحمراء والبيضاء وغيرها قرة ، قزل ، آق ، باتان قوم ، وهى هذه السهول الواقعة بين الفولجا وجبال الكربات . وفى مسالك الأبصار عن بلاد القفجاق إنها « كانت قبل استيلاء التتار عليها معمورة الجوانب وأنها لا تزال فى بقايا تلك العمارة والقراس » وعدد ما فيها من أنواع المزروعات والفواكه وأسماء بعضها بلغة القفجاق .

وفى أسماء البلاد ما يشير إلى ألوان الرمال التى مرَّ ذكرها ؛ فمنها مدينة آلجا كرمان الواردة بمسالك الأبصار وصبح الأعشى وهى Akrerman الحالية بقرب مدينة أوديسا الروسية وفى مقابلها صارى كرمان ، وفى القرم آق مشهد وآق شيار (سباستبول) وآق بلغات الترك معناه : أبيض ؛ ولو فتحت خريطة مفصَّلة لأراضى الروسيا الجنوبية لهالك ما تجد من أسماء القرى والمحطات التى لا تزال تحمل أسماء مشتقة من لغة القفجاق سكان البلاد .

ويحاول بعض المؤلفين أن يجمع بين القازاق والقفجاق فيقول بأن القيرغيز وهم أهل بداوة إلى اليوم يطلقون قازاق على التائه أو الشارد ، والقفجاق فى لغتهم هم الذين انقطعوا عن قومهم وانفصلوا وشردوا .

فالقازاق أو القفجاق هم الذين تركوا العشيرة الكبرى وحكم عليهم بالغربة ، فإذا استقروا فى جهة ما وشغلوا أنفسهم بفلاحة الأرض : استفلحوا وظهرت عليهم مزايا الشعوب المستقرة ومظاهر ضعفها ، ولكن إذا جاءت سنوات القحط وأجدبت الأرض أو أصابهم ظلم الحكام عادت إليهم غريزة الكفاح الأولى ووقفوا أمام الطبيعة وأمام الإنسان ، فإن أخطأهم التوفيق بدأوا غربة جديدة وواجهوا مصاعب الزمن وتحكم الأقدار ، وهم فى

بلاد الروسيا وقد تغيرت مذاهبهم ولغاتهم ولكن يطلقون إلى اليوم على الدواب والمحاصيل وما تحت أيديهم من منقول كلمة « مال » وعلى سكنهم كلمة « ايزبة » وهي عزبة عندنا .

وليس معنى رجل السهول والبادية أنه يأنف من سكنى المدن بل هو يفرح بحياة الاستقرار ويضع مزايا البداوة في تحسين حياته الجديدة ، فالقفجاق قوم أشداء طوال القامة أعصابهم قوية ذوو شدة ومراس على الحروب ، ولكن الأقدار لم تكن تسمح للرجل منهم بحياة الراحة في صحاريه التي تحيط بها الأطماع ، فما إن يهاجم في عقر دياره أو تأتي سنوات القحط حتى يبدأ الهجرة إما شارداً من عدو أو باحثاً عن الكلأ ويسير في هذا الطريق الصعب الشاق الذي يذكرنا بتغريبة بني هلال فيأخذ في البكاء على الأطلال والنابات ومساقط المياه ، ولهم حوادث سجلتها الأغاني الشعبية ، ولا يزال قوزاق الدون ينشدون جماعات ذكرى هذه الهجرات ويبكون الأطلال ويرسلون التحية للأسير النائب والابن الضائع والفتاة المسلوبة ، ولكن بلغة غير لغة آبائهم وأجدادهم . وإن حملت أغانيهم وعبرت عن مشاعرهم تلك النغمة الحزينة التي لازمتهم من أواسط آسياحيث مشرق الشمس ومنبع سرج الدنيا .

ولقد أخرجت المطابع العربية بمصر الكثير من الكتب والأبحاث التي عرضت لتاريخ مصر الإسلامية ، وكان من الطبيعي أن يتعرض واضعو هذه المؤلفات إلى بعض المسائل الجغرافية أو الأمور المتعلقة بشؤون الأجناس ، فكان مما رأيت أن البعض أخذ لفظ جبال القبق على أنه القفجاق ، وأن القفجاق هم سكان القوقاز بل رأيت خريطة جغرافية وضع راسمها جبال القفجاق على أراضي القوقاز ، ولما كان القبق وباب الأبواب والدربند في البلاد الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود وهي المعروفة بسكانها من الجراكسة والكرج والداغستانيين وغيرهم وهي غير صحارى القفجاق الواقعة حول شبه جزيرة القرم والممتدة من نهر الفولجا شرقاً ، رأيت أن أجمع بعض ما عثرت عليه في الكتب العربية تأكيداً لذلك .

فقد ورد في صبح الأعشى عند كلامه على بلاد الدشت قوله « وهي صحارى في الشمال وتضاف إلى القبجاق بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح الجيم وألف بعدها قاف وهم جنس من الترك يسكنون هذه الصحارى أهل حل وترحال على عادة البداوة » وفي كلامه عن القفجاق قال « هذه المملكة متسعة الجوانب طولا وعرضاً كبيرة الصحراء قليلة المدن وبها عالم كثير لا يدخل تحت حصر »

ونقل عن صاحب التعريف : أن صاحبها في الأيام الناصرية (يعني الناصر محمد بن قلاوون) هو السلطان أزبك خان ، وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا اتحاد قديم وصدق وداد من أول الدولة الظاهرية بيبرس وإلى آخر الوقت . وفي مادة تركستان عدّد ياقوت أصناف الترك وذكر القفجاق تحت اسم خفشاق ، وفي المسعودي أنه كان في البلغار من قديم الزمن دار إسلام ومستقر إيمان نقل ذلك صاحب المسالك وأضاف « أما الآن فقد تبدلوا بإيمانهم كفراً وهم يدارون سلطان القفجاق لعظيم سلطانه وأخذه بخناقهم لقربهم منه .

ويقرر الأصطخري أن لغة البلغار والخزر تفترق عن لغة الترك ، وأن لهجات القيرغيز والقبجاق تركية محضة وهذا يتفق مع أبحاث العلماء الأوروبيين الذين وصلوا ما بين القيرغيز والقبجاق كما قلنا . ويقرر الأمير شكيب أن لغة الترك الرحالة الساكنين حول نهر الأنيل وهو الفولجا ، أنقى من لغات أهل المدن وهو قول صريح في أن لغة القفجاق كانت من أنقى لغات الترك .

ويقرر علماء العرب أن نهر أنيل هو المركب عليه مدينة سراى وهي تقع جنوبي ستالينجراد وهو ينبع في ذيل جبل قافونا ثم يتجه جنوباً آخذاً بغرب في صحارى القفجاق على شمالي معادن الفضة حتى يصب في بحر طرستان .

وفي ياقوت عند كلامه على مدينة « كرش » بلدة صغيرة على ساحل بحر الأزق أهلها قبجاق كفار ، ويقابلها من البر الآخر الطامان . وفي كلامه على « كفا » يقول « هي على ساحل بحر القرم وهي شرقي سوداق وعليها سور من لبن ومن شمالها وشرقيها صحراء القبجاق . وعنه حينما تكلم على حملات التتار « وقتلوا القبجاق في بواديهم حتى انتهوا إلى بلغار في نحو عام واحد » .

ومدينة « كفا » هي الميناء الذي كان أهل جنوا والبندقية ينقلون منه فتيان المماليك من أهل هذه البلاد لتسليمهم إلى ملوك مصر مدة دولتي المماليك البحرية والجراكسة ، ولقد وصل الظاهر

بيبرس إلى تسهيل هذه التجارة باتفاقه مع ميخائيل باليولوج ملك بيزانطة للترخيص بمرور السفن عبر البوسفور فى ذهابها إلى البحر الأسود وعودتها إلى مصر .

وجنى أهل جنوا والبندقية أرباحاً طائلة من هذه التجارة كما كانوا يتاجرون بالرقيق الأبيض من فتيان الشرق إلى أوروبا ، ومن نقل فتيان المجر والصقالبة وغيرهم من أوروبا إلى الشرق ، وقد عثر على سجلات بالأثمان التى كان يباع بها الرقيق ، وأن عدد المماليك الواردة من نواحى البحر الأسود لمصر كان لا يقل عن ٢٠٠٠ مملوك تضم كل سنة إلى جنود سلاطين مصر .

وليس هنا موضع بحث هذه الناحية فقد يتسع البحث ويعرض لموضوع تنظيم هذه التجارة والاتفاقات التى كانت قائمة والقواعد التى كان معمولا بها وهذا مما يخرجنا عن موضوعنا .

ولكن أهم ما يربط التاريخ المصرى بالقفجاق هو ما جاء بصبح الأعشى نقلا عن مسالك الأبصار وهو « ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمرائها وجندها ، إذ لما رغب الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مشترى المماليك منهم ، ثم صار من مماليكه من انتهى إلى الملك والسلطنة ، فمالت الجنسية إلى الجنسية ، ووقعت الرغبة فى الاستكثار منهم حتى أصبحت مصر بهم آهلة المعالم ، محمية الجوانب فهم أقاروا مواكبها وصدور مجالسها وزعماء جيوشها وعظماء أرضها » .

« وعهد الإسلام مواقفهم فى حماية الدين حتى إنهم جاهدوا فى الله أهليهم » .

إذ يظهر أن جل المماليك الذين أطلق عليهم اسم البحرية كانوا من قبائل القفجاق مثل بيبرس وقلاوون وفارس الدين أقطاى وغيرهم فأحاطوا أنفسهم بمماليك وأمراء من جنسهم .

ويفسر النزاع الذى قام بين المعز وهو تركمانى وبين المظفر قطز وهو خوارزمى بعد ذلك وبين البحرية من جهة أخرى هو اتفاق الجنسية بين المماليك البحرية وتفاهمهم وتعاونهم وعدم وجود قوة منظمة متماسكة تقف فى سبيلهم ، ولذلك وصلوا إلى فرض إرادتهم على من نازعهم من الأجناس التركية الأخرى وبرزوا فى التاريخ .

وللمماليك البحرية موقفان : أحدهما فى المنصورة والثانى فى عين جالوت ، وفى الثانى يقول صاحب مسالك الأبصار « وكفى بالنصرة الأولى يوم عين جالوت فى كسر الملك المظفر قطز عساكر هولاكو بعد أن عجز عنهم عساكر الأقطار واستأصلوا شأفة السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه » وقتلوا عساكره مع أن الجيش المصرى بالنسبة إلى العساكر الجلالية كالنقطة فى الدائرة والله يؤيد بنصره من يشاء » .

وفى تاريخ المماليك الأتراك فترات غامضة يفسرها لنا النزاع القائم بين الأجناس المختلفة ، فالمعز أيبك التركمانى اعتمد على البحرية فى وقت ما ثم حاربهم ، وقطز وهو خوارزمى حاربهم وصالحهم ثم قتلوه ، وحاول زين الدين كتبغا أن يوجد حوله عصبية من جنسه فضاع الملك منه ، وكان بيبرس الجاشنكير من البرجية فلم يثبت له ملك ، وتمسك الأمراء ببيت قلاوون لأن الغالبية منهم وهم من جنس واحد مع أولاد المنصور قلاوون وهكذا عاش هذا البيت رمزاً للرئاسة مدة أطول من غيره .

وفى الجزء الرابع من صبح الأعشى : « أما فى زماننا فإنه منذ قام السلطان الملك الظاهر برقوق من جنس الجركس رغب فى مماليك من جنسه وأكثر من المماليك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجند ، وقلت مماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقاياهم وأولادهم » .

ويؤكد هذا النص ما سقناه من الحديث ، وإن بحث المشاكل التى قامت بين أمراء المماليك يجب أن يكون قائماً على النصوص وعلى الاستقراء والبحث فى كتب التراجم مع الإلمام بأجناس الترك والجركس وعصبياتهم .

فى القرن السابع الهجرى أتم جوبى ابن جنجيزخان فتح بلاد المسلمين وأخضع إيران واتجهت كتائبه شمالا إلى القوقاز حيث افتحم الدربند وباب الأبواب ، وفى الشمال التقى على نهر الدون بقبائل تركية هى القفجاق فخضعت لأول وهلة للفاتحين كأبناء عمومة وأخوة ، ولكن المعاملة القاسية التى لقيتها أقنعت غيرهما من سكان بحر الأزق (أزوف) أن الأفضل لها وأسلم هو أن تتجه غرباً ، وكان ذلك من أسباب مطاردتهم والفتك بهم وتشريدهم لإعادة القطيع الضال إلى حكم الخان الأعظم . وترتب على هذه المطاردة أن توجه فاندان جوبى وساوتاى بحملة إلى وادى الدنيبر فأتموا إخضاع الجزء الجنوبى من روسيا الحالية وهو المسمى بأراضى القفجاق

فى هذه الأثناء أى سنة ٦٣٩ كانت إحدى قبائل القفجاق لا تجد مأوى أمامها ، فاتجهت إلى القرم بجواد سوداق حال البحر بينها فكاتبت أنس خان ملك الأولاق ليعبروا البحر إليه فراراً من جحافل التتار ، فأجابهم إلى ذلك وأنزلهم وادياً بين جبلين وكان عبورهم إليه سنة ٦٤٠ فلما أطمأن بهم المقام غدر بهم وشن الغارة عليهم فقتل منهم وسبى ، وكان من بين السبى غلامان هما بيبرس الملك الظاهر وبدرالدين بيسرى الشمسى ناقل هذا الحديث ، وكان عمر بيبرس أربعة عشر عاماً فكان أن بيع فى مدينة سيواس وأخذ إلى حلب وانضم فى مصر إلى جماعة من جنسه القفجاق يعملون فى خدمة سلطان مصر .

أما فى بلاد القفجاق فاستمرت المطاردة ضد القطيع الشارد إلى أن جاء الأمر من جنجيزخان باستدعاء قائديه ، ومات الخان الأعظم فإذا حفيده على عرش أراضى القفجاق وما يستجد من الفتوحات .

والآن بعد مضى مئات السنين على هذه الحوادث يرقد الملك الظاهر فى مدرسته بدمشق وتزول من الوجود دول التتار وعظمة الخان ، ولكن ملايين الخلق من القفجاق والعناصر المنولية والأسيوية قد استوطنت روسيا الأوروبية منذ قديم الزمن وتركت عوائدها وتقاليدها وآثرت الحياة الفكرية والتكوين العقلى وصبغت اللغة والأناشيد ، إن هذا التأثير كان قوياً عميقاً لدرجة أكثر من أن يعترف بها الروس أو يحاول أن يشعر بها أو يسلم بها الباحثون فى شؤون روسيا من أهل أوروبا الغربية لأنها تقلب المقاييس والقواعد .

ذلك لأن روسيا بأكملها خضعت لخانات المغول الذين حكموها وامتد سلطانهم إلى ما وراء غاليسيا وأتى وقت لم يبق للروس غير نوفوجورود ، ثم خضعت هى بدورها ، ولذلك يقول الدكتور رابوربورت Rapporport صاحب « تاريخ روسيا » ومؤلف كتاب « لعنة آل رومانوف » .

« موسكو وارثة المغول ، كان القيصر الوارث الروحى لأمراء المغول الذى تجرى دماؤهم فى عروقه ، إن جودونوف كان مغولياً وكان القياصرة يفخرون بأنهم أصحاب عرش القفجاق » .

وفى تعليقات الأمير شكيب على ابن خلدون يقول « أما الروس فكانوا يفرقون دائماً بين القفجاق وغيرهم ، فكانوا يطلقون من أواسط القرن الثانى عشر المسيحى على جميع أصناف الترك ما عدا القفجاق سرنيكلوبوكى أى « الطرابيش السود » وهذا دليل على أنهم قدماء فى تلك الأرض .

فى القرن السادس الهجرى وصل أحد أمراء القفجاق إلى جند من أجناد المسلمين فقال واحد منهم « رزقه الله الإسلام » فأسلم القفجاق ودخلوا الدين الحنيف . والآن فى القرن العشرين نقول « هل يأتى وقت يذكرون فيه أنهم كانوا مسلمين » مرة أخرى « رزقهم الله الإسلام » .

أحمد رمزى

مجلس مديرية أسيوط

يعلن فى المناقصة العامة

١ — توريد خامات مطلوبة لقسم السن والجلود والسجاد والمطبعة بمؤسسة تربية البنين بأسيوط

٢ — توريد أقمشة وخامات لقسم التريكو والأشغال بمؤسسة تربية البنات بأسيوط والمدارس الأولية

وحدد ظهر يوم الثلاثاء ٢٧ مايو سنة ١٩٤٧ موعداً لفتح المظاريف وتطلب القوائم من المجلس على ورقة دمغة فئة ٣٠ مليما نظير دفع ١٠٠ مليم ثمنا للقائمتين. ٧٢١٥

وزارة الدفاع الوطنى

ستعمل مزايدة علنية بسلاح الأسلحة والمهمات الملكى بالعادى فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٣١/٥/١٩٤٧ عن مثال متخلفات ورشة « النشارة والفحم الرجوع وقصاصات الجلد والقماش » والشروط بالسلاح المذكور ٧٢٢٠